(الجزء الثاني)

القدر

وبينما هو ملقى على الأرض مغشيا عليه والموت من حوله يطلبه والحياة تلفظه دارت بخلده الأفكار؛ فبعد لحظات سيهوي هو كتلك الجيفة أمامه ويصير هو نفسه جيفة.. فيا ترى، ما شعورها؟ وهل تشعر؟ وهل للموتى حس؟ وطافت أمام عينيه حياته كلها تافهة بلا معنى يصارع الدهر، وما الدهر يوما بمغلوب، ومن أجل ماذا؟ من أجل غريزة هي فيه بفعل القدر وما له عليها من سلطان. حياة بلا معنى سوى أكل جيف على مضض على الرغم من أنفه.. ويا حسرتاه! حتى لم يسد به جوعه وإنما تركه بأحشائه يُحرق.

يا للعجب! حتى بالموت تلازمه أفكاره، أفلا يفكر بالنجاة حتى؟ وتثير أنفه رائحة الجيف وتُسيل لعابه وهو لذلك كاره من أعماق نفسه يمقتها، أيموت ضحية طبيعة سوية راجيها وما كان له أن يغترف منها ولو شربة بيده؟ نفر كل ما خلق الله من المكان لنتن الرائحة عدا بني جنسه من الغربان بل وهو نفسه، تجمعوا لها يبغونها وهو لا يدري لِمَ لم يلتهموها؟ نعم إنه الطمع بعينه جزء من تكوين أصله من بني الغربان، هم يريدونه، هو الوليمة الكبرى ولا مانع بعدها من تلك الجيفة الصغيرة.. أو ربما القدر أعمى أعينهم عن تلك الجيفة ليلقنه درسا بأن عليه ترك بل قتل هذه الطبيعة السوية ناسيا أو متناسيا الرحمة، هي حياته وعليه أن يحياها

إذًا فليكن.. وفجأة من دون أي معقبات هبّت ريح صرصر عاتية أطاحت بأقرانه من الغربان وأفسدت عليهم رقصة الحومان حول وليمة العشاء وهم وإن لم يقووا على الصمود فقد صمدوا؛ إذ شد الطمع من أذرهم ولدغ الجوع كالحيات قضى على تعبهم هي دناءة المثابرة إذًا. أخطأت يا أماه فها هو القدر يبلغني والحياة تطلبني لأكون لها رسول رعب، وكأن القدر هو من بعث بتلك الرياح لتغطي بدويها على نعيق غربان الموت من فوقه وتقتل صوت الرعب في قلبه.. فرصة للحياة! أيضيعها بحمقه؟ كلا، فالتهمه وإن أضجر نتن الرائحة ما بقي له من طبيعة سوية، فما هي إلا لحظات حتى أضاءت عيناه؛ فهي له بريق الأمل في البقاء ولغيره نذير شؤم بالفناء ونفض ريشه فإذا بسواد الليل منه يخرج. ومن العجيب أن مع أول دبة حياة في قلبه كان النزع الأخير لمبدئه القديم الذي أمضى دهرا مدافعا عنه وكاد يروح له ضحية وأسلم نفسه لرياح القدر إن صح التعبير بل رياح الحياة وفرد جناحيه؛ فهي دليل الخوف من تحته واستحال للرعب رسولا كما بغتة الحياة بعد أن كان متلقيه! وحلّق حتى ارتفع عن أقرانه وهم يتبعونه بنظرهم بعين الدهشة ممزوجة بالحسرة وشُلوا من هول المفاجأة ونفوسهم مليئة بالألم والحسرة على ضياع وليمة أمضوا في انتظارها ساعات. وارتعد قلبه من الدهشة رجفا وناله من الإرهاق نصيب فهوى إلى شجرة يبدو أن بها ما به من الغم والهم فعفا عليها الزمان ونضبت عروق الحياة بها وذهب الخريف بأوراقها فصارت نسيا منسيا! ولما نظر إلى حالها عاودته أفكاره هو كأنها بالنزع الأخير بأعماقه فهو كتلك الشجرة كاد يروح ضحية مبدأ زائف يقوم على رفضه لغريزته تلك الغريزة التي إن كان يمقتها فعليه أن يدين لها بالولاء الآن؛ فهي من نجته بأعجوبة قدرية.. وحلّق بعيدا.. بعيدا بعد أن علّق كل ماضيه على تلك الشجرة الفانية.

اللهم إلا قطرات لا تطفئ ظمأ العصفور..